الدلالات اللغوية للبنيات اللفظية لأسلوب القسم في أول سورة يس
قراءة تحليلية

إعداد : د. ياسر عبد المطلب أحمد
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب
جامعة افريقيا العالمية

المستخلص :

تَهدفُ هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على البنيات اللفظية لأُسلوب القسم في قول الله تعالى:[يس. وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ. إنّك لَمِنْ المُرْسَلِينْ] وذلك لاستكشاف المعاني المختبئة وراء هذه البنيات وما تُوحِي به من إشارات لُغوية.

وقد تناولت الورقة أسلوب القسم في أول سورة يس من عدة جوانب تمثلت في القراءة المتأنية والنظرة الفاحصة إلى ما ورد في فضل سورة يس من خلال الحديث النبوي الشريف:" يس قلب القرآن ..اقرؤوها على موتاكم" والوقوف على بنياته اللفظية ودلالاتها الثرية بمعانيها الخفية، وكذلك تناولت الورقة التركيب اللغوي الذي اشتمل عليه أسلوب ، القسم والمتمثل في قراءة وتحليل البنيات اللفظية للقسم وجوابه ، كما تمثلت في التعرف على الإيقاع الصوتي للأسلوب ودلالاته.

وانتهتْ الورقة بخاتمة توصلتُ فيها بأن الأسلوب القرآني ينتقِي من المفردات والألفاظ ما يكون ملائماً للمعنى المراد وموافقاً للسياق،، فلكل مفردة لُغوية دلالاتها ومعانيها التي لا يسدُّ غيرها مسدها، ولقد عبَّرَ أسلوب القسم في هذه السورة بدقة عن المعنى المراد وبأقلَّ المفردات.

ABSTRACT

This research paper aims at shedding light on the linguistic indications for the verbal structures which form the expression of swear in what Allah has stated: (ya´ – sin by the Qur'an, full of wisdom. Truly you are of the exploration of the messengers). And that for the exploration of the hidden meanings which are beyond these structures and what these linguistic indications inspire.

This paper has taken in the expression of swear at the beginning of Suratya – sin from many sides represented in the slow reading and the inspected in the slow reading and the inspective view to what has come in the value of suratya – sin through the prophetic hadith : " ya – sin is the heart of Qur'an read it for your lead ones , and then understanding of the verbal structures of this hadith and their rich hidden and also this paper has taken in the linguistic synthesis which has been represented in the linguistic indications for the swear and its answer , And also this has been represented in the recognition of the voiceful rhythm for the expression and its indication .

The paper's conclusion results in that the Qur'anic expression selects from the vocabulary and utterances what is suitable for the intended meaning and agreeable to the context. Each vocabulary item has its own indication and meanings which are irreplaceable. And in this surah, the expression of swear has precisely expressed the intended meaning with the least vocabulary items.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

شكّلَ النَّصُ القرآني قِيمةً جماليةً وأدبيةً عند الكثير من المتلقين منذ بدايات نزول الوحي على رسولنا الكريم (ρ) إلى يومنا هذا، فوقف العرب- أهل الفصاحة والبيان- مبهورين حيارَى وعاجزين على أن يأتوا بسورة مثله.

والنصُ القرآني علاوة على ما يحمله من قِيم دينية يذخر أيضاً بتراكيب لغوية تحمل بنيات ثريّة بدلالاتها وغنيّة بمعانيها حققتْ معاني الإعجاز واجتذبتْ آذان السامعين.

ومن مطالعتي للعديد من النصوص القرآنية تبين لي أنّ الأسلوب القرآني لا يكتفي بأن يُجِسّم ظلال الجمال اللُّغوي الأَخَّاذ فحسب ، وإنما يدفع بالفكر ليسعى إلى معرفة المزيد من المعاني الكامنة وراء بنياته اللّغوية، ويأخذ بتلابيب العقول المستنيرة إلى إدراك أسرار الأساليب القرآنية ومكنوناتها النفيسة.

وبما أنّ النّص القرآني يتصف بخاصية التأويل والتفسير وتعدد القراءات؛ لكونه يصلح لكل زمان ومكان، وإنه يَأبَى أنْ يُقرأ قراءة واحدة تُزْعَمُ أنها القراءة الفريدة أو الأنموذج الأوحد، بل يتحقق جمال الأسلوب القرآني عبر قراءات متعددة تتمايز وتتفاوت قِيمُها بحسب ما يفتح الله تعالى للعبد من العلوم والمعارف التي تعينه على فك استغلاق البنيات اللّغوية ليكشف ما توارَى من معانيها ومدلولاتها.

ولَمّا كان ذلك كذلك فقد دفعتني رغبةٌ ملحةٌ إلى تلمس مواطن الجمال في أسلوب القسم في قوله تعالى:[يس. وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ. إنّك لَمِنْ المُرْسَلِينْ] والوقوف على بنياته اللُّغوية المتألقة، ومدى ما تُوحي به هذه البنيات من دلالات عميقة ومعانٍ لطيفة تبهر القارئ وتأجج مشاعر المتلقي جنحتُ إلى البحث عن هذا القسم.

وسوف تكشف هذه الورقة – بعون الله تعالى– القناعَ وتزيل اللثام عن بعض المعاني المختبئة وراء البنيات اللغوية المُشَكلة لهذا الأسلوب وذلك من خلال وقوفي على أربعة محاور رئيسة:

أولاً: الدلالات اللُّغوية فيما ورد في فضل سورة يَس.

ثانياً: الدلالات اللغوية لأسلوب القسم في أول سورة يس.

أ- الدلالات اللغوية للقسم.

ب- الدلالات اللغوية لجواب القسم.

ثالثاً: دلالات الإيقاع الصوتي لأسلوب القسم في أول سورة يس.

رابعاً: الصلة الرابطة للبنيات الأساسية لأسلوب القسم.

أولاً:الدلالات اللُّغوية فيما ورد في فضل سوة يَس :

ورد في فضل سورة يس من الأحاديث النبوية الشريفة الكثير، إلا أنني سوف أتناولُ حديثاً واحداً يلمس جانباً من جوانب دراستنا وفيه – أيضاً- من الدلالات والمعاني ما يجعل المرء يعجز مِنْ أن يصف جماليات الأسلوب النَّبوي، ويقف حائراً أمام ما تُوحي به بنياته اللّغوية من معانٍ تُبهر العقول وتُذهل ذوي الألباب .. يقول رسول الله ρ في حديث طويل ذكر فيه فضائل هذه السورة، نجتزئ منه:" يس قلب القرآن ..اقرؤوها على موتاكم"[١].

١ – نص الحديث:(البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت لا إله إلآ هو الحي القيوم من تحت العرش، فوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة، ويس قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له، واقرؤوها على موتاكم) إلا أن شعيب الأرنؤوط علق عليه :"إسناده ضعيف"، انظر مسند أحمد/ أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مؤسسة قرطبة – القاهرة ج٥ ص(٦٦١).

وبعد قراءات متعددة، ووقفات متأنية لجزيئات هذا النص النبوي الشريف، أمكننا أن نقسمه إلى التركيبين اللُّغويين الآتيين:

يس قلب القرآن / اقرؤوها على موتاكم

ومن خلال ما يوحي به التركيبان تبيّن لي أن علاقةً ما خفيّة ورابطاً دقيقاً يربط التركيبين كليهما، فكأنما مشتقان من معنى واحد؛ ففي التركيب اللغوي الأول يخبرنا ρ بأن سورة يس هي قلب القرآن الكريم، ويحثنا في البناء الآخر بأن نقرأها على موتانا، فما المعاني– إذن- والدلالات التي يحملها التركيبان وما علاقتهما ببعض؟

الإجابة عن هذا التساؤل تقتضي الوقوف على مفهوم القلب ومعرفة دلالاته؛ إذ لا يمكن للعقل أن يتخيل قدر هذه السورة وعظمتها ما لم يدرك – بالفعل- حقيقة هذا العضو الذي يشكل قيمة جوهرية وأهمية أساسية في حياة الفرد.

فالقلب كما تُعرِّفه المعاجم اللُّغوية يدور حول معنى اللُّبّ والخلاصة، فقد جاء في اللِّسان: "وقَلْبُ كلّ شيءٍ: لُبُّه، وخالِصُه، ومَحْضُه"[1]، وأمّا ما أخبرت به الدراسات العلمية عن هذا العضو فإنّه يتصف بدقات ذات إيقاعات متزنة ونبضات منتظمة تدفع بالدم إلى بقية أجزاء جسم الإنسان، وبتوقف القلب عن عمله ووظائفه تتوقف حياة الإنسان وتسكن حركاته.

١ – لسان العرب/ محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى مادة(قلب).

وفي بحثٍ علمي نشرته مجلة آداب النيلين في عددها الأول شبّه البروفيسور عوض حاج علي[١] القلبَ أهم قطعة في جهاز الحاسب الآلي حيث قال:" القلب هو برنامج وعتاد في آن واحد أي أنه مثل (Rom) في الحاسوب، أي أن البرنامج يُقرأ كجزء من العتاد وأنه في حالة تعطيل القلب فإن الأجهزة كلها تكون معطلة..."[٢].

وبهذه المعاني الشكلية يكون القلب قد بلغ أعلى مستويات الأهمية وأرفع درجات العظمة عن بقية أعضاء الجسم الأخرى، بل نذهب إلى أبعد من ذلك لنقول إنّ بالقلب تكون حياة الكائن أو لا تكون.

وبالنظر إلى القلب من زاوية أخرى، والتي يُمثلها حديث رسول الله ρ:" إِنَّ اللّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمُ وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ. وَلكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ"[٣] فإننا نجد أن القلب نال من الشرف والمكانة ما لم ينله غيره من الأعضاء؛ وذلك؛ لأنه مستودع الأسرار الإلهية والأنوار الربانية، وهو القائد الفعلي والموجه الأساس إلى حركات الإنسان التي تدفعه إلى أعمال الخير أو تزج به في الشرور والآثام، فإن صلح هذا العضو وامتلأ بالإيمان كانت بقية الجوارح تابعة له ومنقادة إليه، وإن امتلأ بغير هدى الله، سارت على هديه بقية الأعضاء، كما قال ρ: " أَلاَ وَإِنَّ

---

١ – من مواليد مدينة بورت سودان، عمل أستاذاً بجامعة الخرطوم كلية العلوم الرياضية، ثم أنتدب ليكون نائباً لمدير جامعة الشرق، ثم نائباً لمدير جامعة النيلين في الفترة ١٩٩٤م – ١٩٩٧م ثم مديراً لجامعة النيلين في الفترة ١٩٩٨م – ٢٠٠٥م و الفترة ٢٠٠٨م – ٢٠١١م.

٣– مجلة آداب النيلين، العدد الأول، يناير– مارس ٢٠٠٩م، بحث علمي بعنوان(مماثلية برمجيات المعرفة الإنسانية) للبروفسورعوض حاج علي.

٣ – الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم/ مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، ج٤ ص(١٩٨٦). والحديث متفق عليه، انظر الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم / محمد بن فتوح الحميدي، دار ابن حزم – لبنان/ بيروت – ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م، الطبعة: الثانية، تحقيق : د. علي حسين البواب. ج٣ ص(١٧٢)، باب المتفق عليه من مسند أبي هريرة.

فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ"(١).

فإذا عَرِفنا القلب بهذه المفاهيم العالية والمعاني السامية التي ألمحنا إليها وأخرى لم نستطع، أدركنا – لا محالة- خصوصية هذه السورة الكريمة ومنزلتها العظيمة بين سور القرآن؛ فقد وصفها ρ مجازاً بالقلب، وقلب ماذا ؟ قلب القرآن، فهو نور وهي نور.

وأما العلاقة الحميمة والمتآلفة بين التركيبين كما ألمحنا إلى ذلك في بداية حديثنا، فنجد أن عنصر الموت في التركيب اللغوي(اقرؤوها عَلَى مَوْتَاكُمْ) يشكل حضوراً تلقائياً من خلال ما توحي به لفظة(موتاكم)، ولا شك أن بين الموت والقلب من العلاقة ما لا يخفى؛ حيث يشكلان علاقة استطرادية وأخرى تكاملية يُبينها الشّكل الآتي:

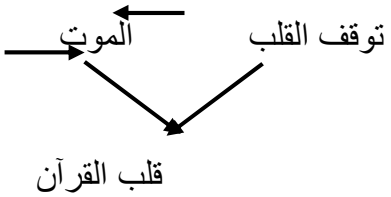

يشير هذا الشكل الإيحائي التخيلي إلى علاقة استطرادية بين القلب والموت؛ فتوقف القلب يُحدثُ الموتَ، والموتُ يَحدثُ بتوقف القلب، كما يشير كذلك إلى علاقة تكاملية توافقية ومتوازنة بين القلب والموت وسورة يس؛ فعندما يكون الإنسان على بُعد خُطوات قلائل تشارف على حافة الموت تتوقف حينئذ حركاته

١ – الحديث متفق عليه. انظر مشكاة المصابيح /محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، المكتب الإسلامي – بيروت،الطبعة الثالثة – ١٤٠٥ – ١٩٨٥م، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، رقم(٢٧٦٢)ج٢ ص(١٢٤).

ويتعطل نشاطه ويظل في هدوء وسكينة وصمت مهيب، ويكون متجهاً بقلبه الخائف الوجل إلى خالقه يرجو رحمته ويخاف عقابه، فيُقرأ عليه من القرآن سورة يس لأنها هي التي تناسب هذا الموقف العصيب إذ أنها هي قلب، فتكون بذلك سكينة وطمأنينة للقلب المتجه إلى ربه المتعلق بخالقه.

ولو أعِدّتْ النظر في التركيب مرة أخرى(اقرؤوها عَلَى مَوْتَاكُمْ) علمتْ عِلَّة استخدام فعل الأمر الطلبي في حث الأحياء على قراءة سورة يس على المُحتضَر الذي يتقلب في فراش الموت؛ وذلك لأنّ لسانه حينئذ معتوه وجوارحه مكبلة وليس فيه ما يعي سوى قلبه، فتُقرأ عليه سورة يس التي هي قلب القرآن لَعلّه يجد في قلبه من أنوارها ما يثبته ويهون عليه سكرات الموت وهوله.

وفي تفسير المنار إشارة إلى شيء من هذا المعنى، إذ يقول:" الأمر بقراءة يس على من شارف الموت مع ورود قوله ρ (لكل شيء قلب وقلب القرآن يس)؛ لأن اللسان حينئذ ضعيف القوة لكن القلب أقبل على الله بكُلِّيته، فيُقرأ عليه قلب القرآن ليستمد من نورها ما يزيد قلبه قوة وثباتاً"[١].

ثانياً: الدلالات اللغوية لأسلوب القسم في أول سورة يس.

يُقسم الله- سبحانه وتعالى- بالقرآن الحكيم على صدق رسالة سيدنا محمدρ، وأنها دعوة حق من عنده تعالى، وأن محمداً ρ مرسل من عند ربه ليخرج الناس من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان كما هو فعل الأنبياء والمرسلين من قبله. ولَمَّا لم يصدقْه الكثيرون من قومه، كما جاء في قوله تعالى[وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً][٢]، وأنكروا عليه دعوته وعذبوه بصنوف من العذاب

---

١ – تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)/ محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني(المتوفى: ١٣٥٤هـ)،الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: ١٩٩٠ م، ج٨ ص(٢٣٥).

٢ – سورة الرعد، الآية(٤٣).

وأذاقوه ألواناً شتى من الألم حيث وصفوه بالكذّاب على الرغم من أنّهρ كان يُعرف عندهم بالأمين، ووصفوه بالشاعر على الرغم من أنه لا يقرض الشعر ولم يكن خبيراً بقوافيه، وقالوا عنه مجنوناً وكاهناً وساحراً ... إلى غير ذلك من الأوصاف الوقحة التي لا تليق بجنابه الشريف ρ، فمن أجل ذلك أنزل الله - سبحانه وتعالى- كثيراً من الآيات التي تؤيده وتصدقه ρ وتُكذبُ أعداءَه المنكرين لدعوة الحق والمتكبرين الذين ألِفُوا الفجور وتربوا على فعل المنكرات، فقال تعالى في سور يس:[يس. وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ. إنّك لَمِنْ المُرْسَلِينْ].

وبهذا القسم الإلهي بطل إنكار الكفار لرسالة الرسول ρ وخاب أمل المرجفين الذين لا يريدون لهذا الدين من ظهور ويأبون أن تقوم شريعة الله في الأرض، ولكن الله يأبى إلا أن يتم نور الهدى والإيمان.

وأمّا إدراك المستوى الدلالي لأسلوب القسم فيقتضي الوقوف على العناصر البنائية المشكلة لهذا التركيب وهي:(القرآن / الحكيم / إنّك / لمن المرسلين) ثمَّ استنطاق كل بنية على حدة؛ لأنّ الوقوف على دلالات كل بنية من هذه البنيات اللغوية يكشف لنا جلياً صدق مقولة الوليد بن المغيرة[١] حين أسمعه الرسولρ الآية:[إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...][٢] فقال الوليد حينئذٍ معبراً بصدقٍ عمّا استشعره من عذوبة هذا القرآن وسلاسته :" إن له لحلاوةً وإن عليه لطلاوةً وإن أعلاه لمثمر وإن أسلفه لمغدقٌ وما هو بقول البشر"[٣].

١ – الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم، أبو عبد شمس: من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش، ومن زنادقتها. انظر الأعلام للزركشي، ج٨ ص(١٢٢).

٢ – سورة النحل، الآية(٩٠).

٣ – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر/ أبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، المكتبة العصرية – بيروت ، ١٩٩٥، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد، ج٢ ص(١٠٨).

ولعلّ أول ما يرعي انتباه القارئ ويلفتْ نظره في الآيتين الكريمتين: [وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ. إنّك لَمِنْ المُرْسَلِينْ] هو أسلوب القسم الذي يتكون من:

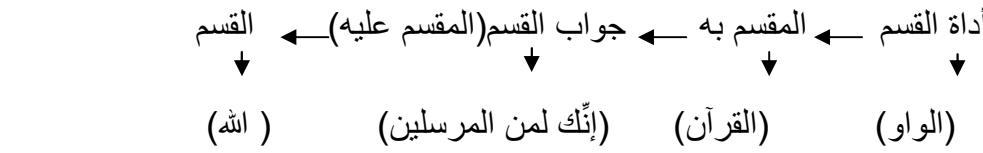

ولكي نبين دلالات هذا الأسلوب يُمكننا أن نقسمه إلى التركيبين اللُّغويين الآتيين:

-الأول القسم، وهو(وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ).

-الآخر جواب القسم، وهو(إنّك لَمِنْ المُرْسَلِينْ).

ثم قراءة إجمالية لهذا الأسلوب نتلمس فيها علاقة توافقية بين بنياته الرئيسة.

أ- القَسم

هنا أمرٌ عجيبٌ في هذا القسم الإلهي(والقرآن)، فلو أمعنتَ النظرَ في هذه اللّفظة وأطلقتَ العنان لخيالك ، ليسرح بعيداً وراءَ هذه البنية اللغوية الشريفة لأدركتَ- لا محالة- أن هناك تأكيداً خفيّاً وقويّاً تحمله دلالات هذه البنية ويكفي وحده أن يكون دليلاً قاطعاً على صدق رسالة محمد ρ، وستجد البرهان على صدق ما أقول في الإجابة المتأنية عن التساؤلات الآتية:

- بماذا أقسم الله؟

- وعلى من أنزل القرآن؟

- أمِنْ حق الله أن يقسم بغير القرآن؟

معلوم أن من حق الله تعالى أن يُقسم بما شاء من آياته ومخلوقاته، فقد أقسم- سبحانه وتعالى- بالليل والنهار والفجر والضحى، وأقسم بالشمس والقمر والنجم... بكل ذلك أقسم وبغير ذلك، إلا أنه لما أراد التأكيد على رسالته ρ أقسم بالقرآن على الرغم من إنكار المنكرين لرسالته ρ وبما أن الله أقسم بالقرآن فدلَّ ذلك على أن القرآن حق وبما أن القرآن حق فمحمد ρ كذلك حق، والشكل الإيحائي الآتي يظهر تناسباً بين القسم وجوابه:

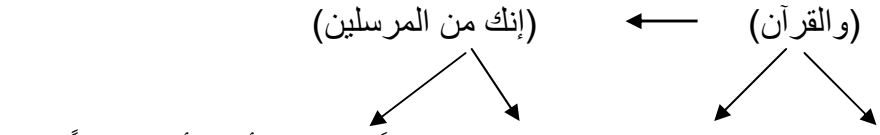

فالقرآن قسمٌ أقسم به الله تعالى، وهو كلام الله وكتابٌ مُنزل، و(إنّك لمن المرسلين) جواب هذا القسم، وضمير الخطاب(إنّك) مرجعه محمدρ. ولمّا كان قسم الله بالقرآن دلّ هذا على تأكيد خفيّ بصدق أنه من المرسلين وصدق رسالتهρ وذلك؛ لأنّ القرآن المقسم به هو الكتاب المنزل على محمدρ.

ثم وُصف القرآن بالحكيم، ولاشك أن القرآن قد وصف بعدة صفات منها: الكريم والمجيد والنور[1] ... إلى غير ذلك، إلا أن وصفه بالحكيم في هذا المقام يقتضيها السياق العام الذي من أجله سيق أسلوب القسم، فوقعت هذه البنية اللغوية التي جاءت وصفاً للقرآن موقعاً حميداً في التركيب يتناسب مع حال المنكرين لرسالة الرسولρ.

١ – في قوله تعالى(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) سورة الواقعة، الآية(٧٧)، ومجيد في قوله(وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) سورة ق، الآية(٢)، والنور في قوله(فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ) سورة الأعراف، الآية(١٥٧).

ولنقف هنيهة على معنىً من المعاني التي تولدتْ من هذه البنية اللُّغوية ، وناسبت هذا المقام والتي تؤكد لنا يقيناً أن القرآن حكيم في نظمه وعجيب في معانيه:

جاء في تفسير القرطبي[١] في قوله تعالى(والقرآن الحكيم)"أي أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل"[٢]، فهنا يشير القرطبي إلى أن القرآن حكيم في ألفاظه اللُّغوية وفي معانيه حيث نجدها موضوعة بدقة وعناية ، لا يشوبها عيب،ولا يعتريها نقص،،ومما يؤكد عجيب نظمه وبديع معانيه قصة الأعرابي الذي قرأ عليه المقرئ قول الله تعالى:[وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ- والله غفور رحيم]، فقال الأعرابي:"ما هذا ببليغ!" فأعاد المقرئ قراءة الآية فقال(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، فقال الأعرابي: معجباً بالنظم! ":عزّ فحكم فقطع"[٣].

وإذا تأملتْ القصة تجد أن الأعرابي خطّأ المقرئ لعدم استقامة أول الآية مع آخرها، وذلك لأن(غفور رحيم) تقتضي الستر والمسامحة والرحمة [٤] وقد تضمنتْ الآية عقوبة للسارق والسارقة وهي القطع والجزاء والنكال، فكيف يتكرم الله على السارق والسارقة بالرحمة والغفران وقد حكم عليهما بقطع أيديهما جزاءً وعقاباً على سوء صنيعهما وقبح فعلهما؟!

---

١ – هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي صاحب التفسير وشرح الأسماء الحسنى والتذكرة وغير ذلك. انظر توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم/ ابن ناصر الدين شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي الدمشقي، مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٩٩٣م، الطبعة : الأولى، تحقيق : محمد نعيم العرقسوسي، ج٧ ص(٢٦).

٢ – الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي/أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى:٦٧١هـ) دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨هـ – ١٩٦٤ م، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. تفسير الآية الثانية من سورة يس.

٣ – خزانة الأدب وغاية الأرب/ تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري، دار ومكتبة الهلال –بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧ ، تحقيق : عصام شعيتوج١ص(١٧٦).

٤ – انظر تفسير أسماء الله الحسنى/ إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، دار الثقافة العربية – دمشق ، ١٩٧٤تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، ج١ ص(٤٧).

ولهذا لم ير الأعرابي تلاؤماً بين أول الآية وآخرها، فلما أعاد المقرئ قراءة الآية على الوجه الذي نزلت به أحّس الأعرابي بالارتياح والطمأنينة فأعجب بدقة المعنى وجمال الأسلوب.

كذلك الحال في اختيار لفظة(الحكيم) صفة للقرآن في القسم(والقرآن الحكيم)، فقد جاءت اللفظة مناسبة للسياق وموافقة لحال المخاطبين كما جاء من معانيها في تفسير القرطبي عن ابن الأنباري[1] قوله :"الحكيم المانع من الفساد، ومنه سُمِّيت حَكَمةُ اللِّجام؛ لأنها تمنع الفرس من الجري والذهاب في غير قصد. والسورة المُحْكَمة: الممنوعة من التغيير وكل التبديل، وأن يُلحق بها ما يخرج عنها، ويزاد عليها ما ليس منها، ويقال: أَحْكَم الشيئ إذا أتقنه. فهو مُحْكم وحكيم على التكثير"[2].

وبهذه المعاني فالقرآن حكيم يستعمل المفردات استعمالاً متقناً من حيث تُعبر كل مفردة عن معانيها بدقة وعناية في المكان المناسب لها والملائم، وعلى الرغم من كثرة المترادفات في اللغة العربية وتعدد المعاني للفظة الواحدة فإن الأسلوب القرآني لا يحتمل استبدال لفظته ولا يقبل غير بنيته ولا يُعوّض تركيبه بتركيب آخر يساوي له في التعبير.

ومن عجائب دقة التعبير في هذا القسم أن الله وصف القرآن كله بالحكمة، فقال:[والقرآن الحكيم]، وفي سياق آخر وصف آياتِه كلَّها بالحكمة أيضاً

١ – الإمام الحافظ اللغوي ذو الفنون، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الأنباري، المقرئ النحوي. ولد سنة اثنتين وسبعين ومائتين، انظر سير أعلام النبلاء/ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي(المتوفى: ٧٤٨هـ)، دار الحديث– القاهرة، الطبعة: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ج١١ ص(٤٨٩).

– انظر الجامع لأحكام القرآن الشهير بتفسير القرطبي/ محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله ، تفسير الآية(٣٢) من سورة البقرة.

فقال:[الر. كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ][1]؛ وذلك حتى لا يقول قائل: إن وصف القرآن بالحكمة في قوله[والقرآن الحكيم] لا يعني أن كله مُحكم فقد يكون بعضه غير محكم؛ فمثلاً: إذا وصفنا فصلاً من فصول مدرسة ما بأنه فصل مثالي فهذا لا يعني أن جميع طلابه مثاليون وأنّهم على خير، بل قد يكون من بينهم طالب عادي وآخر سيئ.

ولَمّا كان هذا يمكن أن يُحمل على أن وصف القرآن بالحكيم قد لا ينسحب على جميع آياته، فيكون بعضها غير محكمة - تقدست آياته وتعالتْ عن ذلك علواً كبيراً- كان قول الله تعالي:[الر. كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ] دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً على أن القرآن كله محكم وعناصره المكونة له من آيات محكمة أيضاً وبنياته اللغوية المكونة لآياته محكمة كذلك.

ب- جواب القسم

الآية[إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ] جواب للقسم، وهي المقسم عليه وفي الحرف (إنّ) وكاف الخطاب ما يدلُّ على شدة قربه ρ من ربه سبحانه وتعالى؛ لأن ضمير الخطاب في(إِنَّكَ) فيه ما يوحي بالقرب والدنو من المتكلم، فلم يقل- سبحانه وتعالى-" إنّه من المرسلين" أو "إنّ محمداً من المرسلين" وذلك؛ لأن الأسلوب القرآني يعبر بدقة عن معناه كما أن في صيغة الخطاب معانيّ عميقة ودلالات واسعة إذ تشعرك بقربه من خالقه سبحانه وتعالى وأنّه ρ في معيته جلّ وعلا، وهذا ممّا يُخففُ بعضاً من معاناته وقسوة قومه عليه.

---

١ – سورة هود، الآية(١-٢) ، وتكملتها (ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ).

وقوله(لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ) خبر إنّ، مؤكد بلام القسم، وفيه إشارة إلى أن الله- سبحانه وتعالى- قد أرسل رسلاً قبله ρ وما هو إلا واحدٌ من جملة المرسلين، ولست ببدع من الرسل بل جاء بما جاء به الرسل من الأُصول الدينية والأحكام الشرعية.

ولما كانت صياغة القسم في أسلوب خبري عُضّد بعدة مؤكدات تتناسب وحال المخاطبين وقتئذٍ، وهي: القسم واللام الواقعة في خبر إنّ وهي لام الابتداء المزحلقة وإن التوكيد. والشكل الآتي يبين هذه المؤكدات:

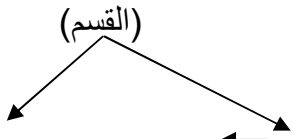

(إنّ التوكيد) اللام في (لمن المرسلين) الداخلة على خبر(إنّ) جواب القسم

حيث يمثل القسم أعلى مراتب التأكيد في هذا الأسلوب الخبري، وحضور المؤكدات بهذه الكثافة على قلة مفردات أسلوب القسم جاءت لتناسب حال المخاطبين وشدة إنكارهم للقضية المُقسم عليها وهي: إن محمداً ρ مرسل من عند الله بدعوة الحق للناس كافة، ولم يقسم الله لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له ρ وذلك تعظيماً له وتمجيداً.

ثالثاً- الإيقاع الصوتي لأسلوب القسم في أول سورة يس

لا بأس من الإشارة هنا إلى الإيقاع الصوتي، فالذائقة العربية – بعامة- تستسيغ من الكلام ما كان فيه نغم شجي، والإيقاع الحسن يَظْهرُ عندما يتحقق التلاؤم والانسجام بين أنغام الألفاظ فيُحدث ارتياحاً في نفس المتلقي ، فتنفذ المعاني إلى قلبه وتهز أعماقه.

ولا شك أن الإيقاع الصوتي الذي صيغ فيه أسلوب القسم قد ساهم مساهمة فاعلة في لفت انتباه القارئ واجتذاب أذنيه، فألفاظ أسلوب القسم منسجمة ومتناسقة يأخذ بعضها برقاب بعض؛ وذلك للتآلف الناجم عن أصوات الحروف المكونة للبنية اللغوية التي تنتهي بها الفاصلة:

- (يس) تنتهي بحرفي الياء والنون نطقاً(ياسين).
- (الحكيم) تنتهي بحرفي الياء والميم.
- (المرسلين) تنتهي بحرفي الياء والنون.

نلاحظ أن حرف الياء يُعَدُّ قاسماً مشتركاً بين البنيات الثلاث، كما تشترك النون في بنيتين منهما، فنتج عن هذا التكرير سهولة في نطق الألفاظ وسلاسة وانسيابية في خروجها؛ حيث تخرج الياء من وسط اللسان والنون من طرفه[1]، ولا شك أن الحرف الذي يخرج من اللسان يتطلب جهداً أقل من ذاك الذي يخرج من الحلق.

ولَمّا كانت النفس البشرية تميل بطبعها إلى الاقتصاد في الجهد للوصول إلى أغراضها وغاياتها، فإنّ صوت النون الصادر من لفظة(يس) وصوت الميم في لفظة (الحكيم) يكسبان هذه الفواصل سهولة وانسيابية عند خروجها من الفم وهذا مما يشعرُ النفس بالاستقرار والارتياح حال الوقوف على هذين الحرفين لسهولة مخرجهما[2].

---

١ – قواعد التجويد على رواية حفص عن عاصم بن أبي النجود/أبي عاصم عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ط٥، ص(٤٠).

٢ – مخرج النون طرف اللسان مع التصاقه بأصول الثنايا العليا، وأما مخرج الميم فمن بين الشفتين بعد انطباقهما. انظر قواعد التجويد على رواية حفص عن عاصم بن أبي النجود/أبي عاصم عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، ص(٤١و٤٣).

كما أدى انسجام هذه الأحرف إلى انسجام الإيقاع في البنيات اللغوية الثلاث، وأدتْ كذلك حركة الكسر قبل الياء إلى امتداد حركة الصوت وارتفاعه فنال بذلك حرف الياء عناية أوفر من المد والإشباع:

يَاسِيـــــــنْ / الحَكِيـــــــمْ / المُرْسَلِيـــــــنْ

وناسب هذا الإيقاعُ الصوتي الممتد الحزمَ والصرامةَ في قطع الأمور وفصلها التي – عادة- ما تصاحب أسلوب القسم في التعبير العربي بعامة، وأكسى هذا التلاحم اللفظي المنسجم أسلوب القسم جمالاً في النسق وروعة في التعبير علاوة على انسجام أحرف اللفظة الذي أدى إلى حسن جمال الإيقاع، فصار إيقاعاً مُبهِراً لا تملُّ منه الآذان سماعاً ولا ترديداً.

وإذا تأملتَ تناسق الكلمات في كل من القسم وجوابه، ثم دققتَ نظرك في تآلف الحروف وتنوع الحركات والسكنات والمدود اللاحقة ببعضها، علمتَ يقيناً أن هذا الأسلوب القرآني قد صُبتْ كلماته وحروفه وحركاته بمقدار قُدر بتقدير العليم الخبير، وهيهات للمقاييس البشرية أن تضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة ، وأن تزنه بمثل هذا القسطاس المستقيم.

رابعاً: الصلة الرابطة للبنيات الأساسية لأسلوب القسم

وبعد القراءة التفصيلية لأسلوب القسم في الآيتين السابقتين من سورة يس، وبالرجوع إلى قراءتها مرة أخرى تبيَّن لي أن هذا الأسلوب قد جمع بين ثلاثة ألفاظ شريفة شرفاً مطلقاً، فبالنظرة الفاحصة لهذه الألفاظ:

القرآن / الكاف في(إنّك) المخاطب بمحمد ρ / الرسالة

تجد أن القرآن شَرُفَ لأنه كلام الله عز وجل، وأنه خير الكتب السماوية المنزلة من الله تعالى إلى أهل الأرض بل هو ناسخ لجميع الكتب السماوية التي نزلتْ قبله، فخيريته وأفضليته – إذن- على الكتب السماوية مطلقة، فلا يدانيه كتاب ولا يعدله مُنَزَّل في الشرف والقداسة.

وأن محمداً ρ الذي يعود عليه ضمير الخطاب في قوله:(إنّك) شَرُفَ؛ لأنه خير البشر وأفضلهم على الإطلاق، ولا يدانيه نبيّ ولا رسول، كما قال عن نفسه:(أنا سيد ولد آدم)[1]، فهو من ناحية بشريته سيد البشر وصفوتهم، ومن جهة أنّه رسول فهو خاتمُ الأنبياء والمرسلين ولا نبيَّ بعده، فَمنْ بَعْدَ هذا يضاهي هذا السؤدد وذاك الشرف؟! فقد خصه الله تعالى- بمنزلة رفيعة تتضاءل عندها ملائكة الرحمن فضلاً عن البشر والجان.

وشرفتْ كذلك الرسالة؛ لأنها أعظم عطايا الله تعالى للعبد وأرفعها منزلة، فليس هناك نعمة أنعم الله تعالى على عبد من عباده خيراً من أن يصطفيه من بين الخلق ليوحي إليه ويرسله إلى الناس بشيراً ونذيراً، فهي نعمة لا تدانيها نعمة وشرف لا يماثله شرف، وكذلك من نعم الله تعالى على العباد أن أرسل إليهم رسلاً من أنفسهم ليخرجوهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم والهدى والإيمان.

الخاتمة:

بعد هذه السياحة الممتعة في رحاب آيات الذكر الحكيم ومن خلال التّعرف على أسلوب القسم في قول الله تعالى:[يس. وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ. إنّك لَمِنْ المُرْسَلِينْ] والوقوف على بنياته اللغوية، وبعد استقراءات متعددة ووقَفَات متأنية لهذا

---

١ – انظر صحيح مسلم، ج١٥ ص(٣٢) ونصه(أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ. وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ) والحديث صحيح، انظر مشكاة المصابيح /محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، رقم(٥٧٤١)،ج٣ ص(٢٤٨).

الأسلوب تبيَّن لي جليّاً أنّه برهانٌ ساطعٌ ودليلٌ قاطعٌ على صدق رسالة نبينا ورسولنا محمد ρ.

كما تبين لي– بعامة- أن الأسلوب القرآني يتكون من المفردات والألفاظ ما يكون ملائماً للمعنى، وموافقاً للسياق، فلكلِّ كلمة دلالاتها ومعانيها التي لا يسد غيرها مسدها، فكان بذلك محكم في ألفاظه، ومحكم في معانيه، ومحكم في أساليبه.

ولقد عبَّرَ أسلوب القسم في ذاك السياق عن المعنى المراد بدقة وبأقل المفردات، وبذلك تحقق المبدأ الجمالي المنشود في التعبير العربي الذي يتمثل في تقليل الألفاظ والتوسع في دلالتها، وقد أشار البلاغيون إليه بقولهم:" وبلاغة القرآن تعتمد على دقة التعبير والإجادة في الوصف بألفاظ قليلة وتوسع في الدلالة"[١].

وعلى الرغم مما بذلتُ جُهداً واستغرق وقتاً ، فإنني لا أستطيع أن أزعم بأنني أعطيتُ هذا الأسلوب القرآني حقه الكامل في التحليل والكشف عن معانيه ومكنوناته، فأنَّى لي ذلك، فقد أعجز أهل الفصاحة والبيان على الإتيان بسورة واحدة من مثله، قال تعالى[أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ][٢]، ولكنني قد بينتُ بعض المعاني والدلالات التي أوحتْ بها البنيات الأساس المكونة لأسلوب القسم.

ولا شك أنّ هناك كثيراً من المعاني والدلالات ما زالتْ مختبئة تنتظر من يسلط الضُوء عليها ليكشف أسرارها ويبين مدلولاتها، فسبحان الله الذي أتقن كل شيئ بديع السماوات والأرض لا إله إلا هو، ثم أُصلِّي على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه وأُسلِّمُ تسليماً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

١ – النقد والإعجاز/ محمد تحريشي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق٢٠٠٤م. ص(٢٠).

٢ – سورة يونس، الآية(٣٨).

المصادر والمراجع :

- القرآن العظيم.

١ - الأعلام/ خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر- أيار / مايو ٢٠٠٢ م.

٢- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني/ فاضل صالح السامرائي- الطبعة لخامسة١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، دار عمار-عمان.

٣- تحليل لغوي أسلوبي لنصوص من الشعر القديم /عبد الرحيم الرحموني ومحمد بوحمدي/ - الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، دار الأمان - الرباط.

٤- تفسير أسماء الله الحسنى/ إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، دار الثقافة العربية-دمشق،١٩٧٤م تحقيق:أحمد يوسف الدقاق.

٥ - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)/ محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: ١٩٩٠ م.

٦- تفسير القرآن العظيم/ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٧- توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم/ ابن ناصر الدين شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي الدمشقي، مؤسسة الرسالة - بيروت-١٩٩٣م، الطبعة:الأولى، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي.

٨- جامع الأحكام القرآن = تفسير القرطبي/أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى:٦٧١هـ) دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.

٩- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم/ مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.

١٠- الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم/ محمد بن فتوح الحميدي، دار ابن حزم – لبنان/ بيروت – ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م، الطبعة: الثانية، تحقيق : د. علي حسين البواب.

١١- خزانة الأدب وغاية الأرب/ تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري، دار ومكتبة الهلال–بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، تحقيق:عصام.

١٢- سير أعلام النبلاء/ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي(المتوفى: ٧٤٨هـ)، دار الحديث- القاهرة، سنة الطبع: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

١٣- قواعد التجويد على رواية حفص عن عاصم بن أبي النجود/أبي عاصم عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، الطبعة الخامسة.

١٤ – لسان العرب/ محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى .

١٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر/ أبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، المكتبة العصرية – بيروت، ١٩٩٥، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد.

١٦- مجلة آداب النيلين، العدد الأول، يناير- مارس ٢٠٠٩م، بحث علمي بعنوان(مماثلية برمجيات المعرفة الإنسانية) للبروفسورعوض حاج علي.

١٧- مسند أحمد/ أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مؤسسة قرطبة – القاهرة.

١٨ – مشكاة المصابيح /محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، المكتب الإسلامي – بيروت،الطبعة الثالثة – ١٤٠٥ – ١٩٨٥م، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.

١٩– النقد والإعجاز/ محمد تحريشي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق٢٠٠٤م.